الزي الصحراوي بين الأصالة والتنوع
مقاربة تاريخية واجتماعية ودينية
موجزة لأبعاد اللباس في المجال البيضاني

لعبيدي بلقاضي
جامعة محمد الخامس – الرباط
المغرب

الملخص:

تتناول هذه الدراسة الرمزية السوسيولوجية والأنثروبولوجية والأبعاد المتعددة للزي التقليدي في المجال البيضاني والصحراء المغربية، متجاوزةً الوظيفة النفعية والمناخية للباس إلى رصد تحولاته كفاعل رئيسي في الحراك البنيوي للمجتمع.

تتطرق الدراسة في قسمها الأول إلى المكونات البنيوية للزي؛ ممثلة في الدراعة والعمامة واللثام للرجال كرموز للوقار والحشمة والمكانة العلمية، والملحفة للنساء كشعار للهوية البصرية المحافظة، وفي الشق التاريخي والسياسي، تبحث الدراسة التوظيفات العسكرية والسياسية للباس، بدءاً من اتخاذ اللثام شعاراً هوياتياً وسلطوياً في العهد المرابطي، مراراً بتحولاته كعربون للولاء أو الانشقاق في الصراع مع الموحدين، وصولاً إلى العهد الحساني وما رافقه من تغيرات مظهرية حربية، كما تسلط الدراسة الضوء على البعد الاقتصادي للأقمشة "كالخنط والبيصة" التي تحولت إلى وحدات نقدية ومواد للمقايضة حركت قوافل التجارة الدولية بين الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء، وفي الختام؛ تستنطق الدراسة المتن النوازلي والفقهي المورث في المنطقة؛ كفتاوى ابن الأعمش العلوي والشيخ محمد المامي، للكشف عن كيفية تقنين الفقهاء للاستعمالات الاجتماعية والاقتصادية للأثواب، مبرزةً التلازم الوثيق بين اللباس والهوية في التاريخ الاجتماعي للصحراء المغربية.

كلمات مفتاحية :الزي الصحراوي، المجال البيضاني، الفقه النوازلي.

Abstract

This study examines the sociological and anthropological symbolism, as well as the multifaceted dimensions of traditional attire in the Beidan domain and the Moroccan Sahara. It goes beyond the utilitarian and climatic functions of clothing to monitor its transformations as a major actor in the structural dynamics of society. The first part of the study deals with the structural components of the attire, represented by the male *"Daraa"*, turban, and *"Litham"* (veil) as symbols of dignity, modesty, and scholarly status, and the female *"Melhfa"* as an emblem of a conservative visual identity. Historically and politically, the paper investigates the military and political employments of dress, starting with the adoption of the *"Litham"* as an identity and authoritative slogan during the Almoravid era, through its transformations as a token of allegiance or political rebellion during the conflict with the Almohad dynasty, up to the Hassani era and its accompanying changes in martial appearance. The study also highlights the economic dimension of fabrics (such as *"Khant"* and *"Bisa"*), which transformed into monetary units and barter commodities that driven international trade caravans between the Sahara and Sub-Saharan Africa. Finally, the study interrogates the juristic and Nawazil (legal rulings) texts inherited in the region, such as the fatwas of Ibn al-A'mash al-Alawi and Sheikh Mohammed Mami, to reveal how jurists regulated the social and economic uses of fabrics, highlighting the close nexus between dress and identity in the social history of the Sahara.

تمهيد:

يعد اللباس التقليدي الأصيل أحد أبرز المرتكزات الثقافية التي تعكس عمق الانتماء الحضاري للمجتمعات، ومحددًا هوياتيًّا يترجم قيم الصمود والارتقاء عبر التمسك بالخصوصية الذاتية والتراثية، إن هذا الموروث لا يقف عند حدود التعبير عن تقاليد منطقة بعينها، بل يتعداه ليروي قيم المحافظة والوقار التي توارثها الخلف عن السلف في تلاحم جيلّي مستمر، وفي هذا السياق، يبرز التنوع الثقافي المغربي امتدادًا من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب كقوة حضارية وثروة تراثية زاخرة؛ إذ تبصم الأزياء التقليدية في كل شبر من هذه البلاد المباركة على تميز مجالي، وتكشف كسوتها عن رمزية وطنية متجذرة في ربوع الوطن كافة.

وضمن هذا الغنى التراثي، يكتسي موضوع اللباس التقليدي في المجال البيضاني عموماً، وبالصحراء المغربية على وجه الخصوص، طابعاً استثنائياً متميزاً في عمقه التاريخي، وزخمه الشعبي، فضلاً عن الوظائف المتعددة التي يؤديها عبر أبعاد ومستويات مختلفة، وبالرغم من مظاهر التحديث والعصرنة المتسارعة، استطاع المجتمع الصحراوي صون وحدة لباسه التقليدي، وجعله تعبيراً نسقياً ينسجم مع تمثلاته الجمالية، وثوابته الدينية، ومرتكزاته التاريخية، وتبعاً لذلك؛ تميزت أزياء كلا الجنسين بسمات الحشمة، والتواضع، والوقار، والذوق السليم، والبساطة؛ حيث يختص الرجل بارتداء **"الدراعة"**، في حين تلتزم المرأة برداء **"الملحفة"** كزي رسمي، ومن المثير للانتباه أن الإنسان الصحراوي يمارس أعقد الأنشطة اليومية والعملية بيسر مرتدياً هذا الزي، متبدداً بذلك أي انطباع واهم قد يوحي بأن اتساع هذه الملابس يتنافى مع الخفة أو يتعارض مع متطلبات عصر السرعة.

1- المكونات البنيوية للزي الصحراوي ودلالاته الرمزية

أولاً: الزي الرجالي (الدراعة)

لم تعد صناعة **"الدراعة"** وخياطتها منحصرة في أنماط محدودة، بل أضحت تخضع لعشرات الأشكال من الفصالة والطرز تلبيةً لرغبة الزبون وإبداع الصانع، وهو ما يتطلب مهارة يدوية ودقة عالية واستعمال آلات متخصصة، وقد صُممت الدراعة بنيوياً لكي تتلاءم مع الخصوصيات المناخية للبيئة الصحراوية، عاكسةً في الوقت ذاته أصالة لابسها.

وتتعدد أصناف الدراعة بتعدد جودة النسيج ونوع الطرز المستعمل؛ وتعتبر الدراعة المصنوعة من ثوب **"بزان"** الأكثر شيوعاً وتداولاً في الأوساط المحلية. تليها دراعة **"بلمان"** المتميزة بثوبها المصبوغ باللون الأسود، وهي أقل انتشاراً في المناطق الجنوبية، ويقتصر اقتناؤها غالباً على الميسورين من المجتمع، كما نجد دراعة **"باخة"** (نسبة إلى نوع القماش المعتمد فيها)، بالإضافة إلى دراعة **"الشكة"** الخفيفة والرقيقة التي تُرتدى خصيصاً في فترات الحر الشديد.

ويخضع ارتداء الدراعة لشرطي الزمان والمكان؛ فدراعتا "بلمان" و"باخة" تُخاطان باليد وتُخصصان للحظات ومناسبات اجتماعية فارقة؛ حيث يرتديهما أعيان القبائل وشيوخها في المحافل الكبرى كالأعراس، إذ يرتدي الإنسان الصحراوي الدراعة العادية في أنشطته اليومية الروتينية، ولا سيما أثناء ممارسة الرعي وأعمال الكسب.[1].

ثانيا: اللثام والعمامة

يمثل **"اللثام"** أحد أهم المقومات البصرية والرمزية في الأزياء الرجالية بالصحراء، إذ يعد علامة أيقونية تحيل على خصال الحياء، والوقار، والحشمة، وهي قيم مركزية يستمد المجتمع توازنه واستقراره الأخلاقي منها. ويتحول اللثام إلى **"عمامة"** عندما يُلف حول الرأس؛ والعمامة في الثقافة العربية والصحراوية تخفي وراءها دلالات العلم والمكانة؛ فقد تعلو رأس فقيه، أو عالم نابغة، أو رجل جواد كريم. وفي هذا السياق، لخصت الذاكرة العربية هذه المكانة بقولهم: **"تحت العمامة كرم"**. كما رُوي عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: **"العمائم تيجان**

[1]-التراث الثقافي بالساقية الحمراء وسبل التثمين، سيدي السالك البودناني، مجلة المعرفة التابعة لمركز جسور، العدد الثالث والعشرون، يناير 2025.

العرب".[2] وبذلك، اعتبر ارتداء العمامة من سيماء الصالحين ورمزاً للتقوى والإيمان، مما يجعل لابسها منزهاً عن الاختلاط بأهل الفسق أو السقوط في مبتذل السلوك، ويقوم الصحراوي بلف اللثام بإحكام حول رأسه ووجهه في عدة طيات، فلا يظهر منه سوى أهداب العينين، محققاً بذلك وظيفة مزدوجة: حمايةً من قساوة المناخ الحار وهبوب الرياح الرملية القوية، وصوناً لسمات الحياء.

ثالثاً: السروال

تعد كلمة "سروال" في أصلها اللغوي لفظاً معرباً مشتقاً من الفارسية (**شلوار**) وتتعدد أنماط السراويل التقليدية في الصحراء، ومن أبرزها: "**سروال اكشاط**"، وتسميته مقترنة بالأحزمة الجلدية المتينة المصنوعة من جلد الإبل (**جنبة الإبل**)، وهناك أيضاً "**سروال استمب**" المتميز بزخارفه الجانبية الممتدة في شكل أشرطة طولية أو دائرية عند مستوى الركبتين، وبوجه عام، تُخاط هذه السراويل من نفس نسيج الدراعة، ويتطلب تفصيلها حوالي خمسة أمتار من الثوب؛ حيث تتميز بالاتساع والفضفضة عند الردفين، ثم تضيق تدريجياً حتى تلتصق بالساق عند منتصفه، وتزدان بحواشٍ سفلية مطرزة بأشكال مستديرة وجميلة[3].

الزي النسائي: (الملحفة):

تظل "**الملحفة**" الزي الرسمي المفضل والمميز للمرأة الصحراوية، مشكلةً جزءاً لا يتجزأ من هويتها البصرية وانتمائها لبيئتها المحلية التي تختزن قيم المجتمع البدوي المحافظ. وبنيوياً، تتكون الملحفة من ثوب يبلغ طوله أربعة أمتار، ولا يتجاوز عرضه متراً وواحداً وستين سنتيمتراً. وما يميز هذا اللباس هو وحدة تفصيله؛ إذ لا يحتاج إلى عمليات خياطة معقدة، بل يقتصر على عمل عقدتين في الأعلى لتشكيل دائرتين تُعرفان بـ "**اخلالين**"، تخرج المرأة عبرهما رأسها ويديها، ثم تلف باقي الثوب حول جسدها بطريقة انسيابية.

وتتنوع الملاحف بتنوع الأقمشة والأسماء المتداولة؛ ومن بين هذه المسميات نذكر: (**الشكة، صفانة، بيرسي، واخ النعامة، السقاية، كاز، كونتر، كنيبة...**)،[4] وإلى جانب هذه الأصناف، يبرز نوع خاص يُعرف بـ "**ملاحف النيلة**". والنيلة مادة زرقاء داكنة تضرب إلى السواد، تُستخلص من شجرة النيلة، وتُعتمد لغايات صحية وتجميلية؛ إذ تسهم في حماية البشرة من تقلبات الطقس (البرد والحرارة) وتمنح الجسم نضارة وإشراقاً. ويمر قماش الملحفة بعدة مراحل في صباغته، لعل أبرزها تقنية "**الباتيك**"، وهي عملية تعتمد على تجميع القماش وتجعيده وتشميعه، ثم غمسه عفوياً في سائل الصباغة، وعند فتحه تظهر الألوان متداخلة ومتجانسة في تشكيلات فنية بديعة. وتعتبر الملحفة رفيقة المرأة الصحراوية في تفاصيل حياتها اليومية وخلال المناسبات الاحتفالية على حد سواء[5].

3- التوظيفات السياسية والعسكرية للباس الصحراوي

أولاً: اللثام كشعار هوياتي وسياسي في العهد المرابطي

أفردت المصادر العربية التاريخية المتخصصة في العصر الوسيط لشمال إفريقيا حيزاً مهماً للحديث عن اللباس الصحراوي، ولا سيما "**اللثام**" الذي اتخذه المرابطون في طورهم الأول شعاراً تمييزياً لقبائل صنهاجة عن باقي المجموعات البشرية المجاورة، وفي هذا الصدد، يشير **ابن خلدون** (ت 808هـ) عند تدوينه لأخبار صنهاجة قاطني القفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب بأنهم: "**اتخذوا اللثام خطاماً تمايزوا بشعاره بين**

[2]- أخرجه الديلمي في الفردوس رقم 4247.

[3]- التراث الثقافي بالساقية الحمراء وسبل التثمين، سيدي السالك البودناني، بتصرف.

[4]- التراث الثقافي بالساقية الحمراء وسبل التثمين، سيدي السالك البودناني، ص: 567.

[5]- التراث الثقافي بالساقية الحمراء وسبل التثمين، سيدي السالك البودناني، ص: 567.

الأمم"[6]. وعرف صنهاجة الصحراء بالملثمين تمييزا لهم عن بني عمومتهم من حاسري الرؤوس والقاطنين آنذاك في التخوم الشمالية للصحراء الكبرى، ولا يعرف الشيء الكثير عن أولية اللثام ودلالاته أكثر من أنه صار شعارا للقوم ومواطنهم الصحراوية[7].

من جانبه، ذهب **البكري** (ت 477هـ) في كتابه المسالك والممالك إلى تعميم هذه الظاهرة على كافة قبائل الصحراء، مشيراً إلى استخدام **"النقاب"** الذي يفوق اللثام بتغطيته للوجه كاملاً باستثناء محاجر العينين، وأكد البكري ملازمة القوم لهذا الزي في جميع أحوالهم، لدرجة أن الرجل لا يعرف قريبه أو صهره إلا إذا كان متنقباً، وحتى في ساحات المعارك إذا سقط القتيل وزال قناعه لم يُعرف هويته حتى يُرد القناع إلى وجهه، واصفاً التزامهم به بأنه **"ألزم لهم من جلودهم"**، ومشيراً إلى أنهم كانوا يطلقون على من خالف زيهم لقب **"أفواه الذبان"** بلغتهم[8].

ومع تعاظم القوة العسكرية والسياسية للملثمين تحت قيادة زعمائهم الدينيين والعسكريين، من أمثال الأمير **يحي بن إبراهيم الكدالي**، والأمير **يحي بن عمر اللمتوني**، والأمير **يوسف بن تاشفين**، وتأسيسهم لإمبراطورية شاسعة امتدت من السودان الغربي إلى شمال إفريقيا والأندلس، تحول اللثام والعمامة من مجرد زي بدوي إلى **رمز سياسي سلطوي** يجسد التفوق العسكري للدولة. فقد تشكلت نواة الجيش المرابطي من أبناء الصحراء الملثمين، والذين لعبوا دوراً حاسماً كجيش محترف حامٍ للجزيرة الإيبيرية، قبل أن تتنوع تشكيلات الجيش بتوسع الدولة ودخول عناصر اجتماعية جديدة تحت نفوذها[9].

وفي محاولة لتفسير أصول التلثم، أوردت بعض الأطروحات روايات أقحمت المرأة الصحراوية في هذا السياق؛ إذ نُسب إلى قبائل صنهاجة تكنيهم بالملثمين أو المقنعين بسبب حادثة حربية اضطرت فيها النساء للقتال متنقبات ومحجبات لإيهام الأعداء بأنهن رجال، وتظل هذه الرواية شاذة ونادرة عند عرضها على مشرحة النقد والتمحيص مقارنةً بالمصادر الوسيطية الرئيسية التي أغفلت ذكر مثل هذه الحوادث[10].

ثانياً: اللباس وتحولات الولاء والاصطدام السياسي (المرابطون والموحدون).

بعد توطيد المرابطين لنفوذهم في الأندلس إثر موقعة الزلاقة الشهيرة، برزت بعض الحساسيات السوسيولوجية؛ إذ نُظر إلى المرابطين في بعض الأوساط الأندلسية كمحاربين أجانب يدافعون عن مجتمع يختلفون معه في الأنماط الحياتية. وتجلى هذا التمايز في منع الأندلسيين من ارتداء اللثام الذي ظل حكراً على الأقلية الصحراوية المحاربة.

ومع أفول النجم المرابطي وظهور الحركة الموحدية، تحول اللثام في خطابات الخصوم من رمز للقوة إلى **علامة دالة على الانحطاط السياسي**. وسعى المصامدة (الموحدون) إلى تجريد خصومهم الصنهاجيين من الألقاب ذات الحمولات الدينية والرمزية كـ "المرابطين"، واكتفوا بنعتهم بالألقاب البدوية ذات الصبغة القدحية نكايةً بهم[11]. وفي هذا الإطار عنون المؤرخ **ابن عذاري المراكشي** إحدى حملات عبد المؤمن بن علي العسكرية بقوله: **"اختصار الخبر بحركة عبد المومن الطويلة الأعوام ومقتل تاشفين أمير أهل اللثام"**، واصفاً البلاد بـ "بلاد أهل اللثام"[12].

وقد أضحت الأزياء في هذا العصر مؤشراً علنياً على الولاء أو العصيان السياسي؛ فخلع اللثام كان يعني إعلان الانشقاق عن المرابطين والدخول في طاعة الموحدين عبر ارتداء زيهم الموحد. ويوثق ابن عذاري هذا التحول عند حديثه عن بيعة أهل سبتة وحضور يحي بن إسحاق أنجمار المسوفي في جماعة من قومه، حيث كانوا ملثمين ثم **"أزالوه بظاهر فاس وصاروا في زي الموحدين"**. ومع السقوط النهائي لمراكش وإنهاء

---

[6]– تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر)، عبد الرحمن ابن خلدون 808هـ تحقيق: خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1421-2001م، (159/3).

[7]– المصدر نفسه

[8]– المسالك والممالك لأبي عبيد البكري(ت 477هـ)، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1992م (258).

[9]– المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر، محمدو بن محمدن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 2001م، ص:226.

[10]– المصدر السابق نفسه.

[11]– دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الدكتور نهلة شهاب أحمد، (ص:158) دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2009م،

[12]– البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية ص:125

حكم أمراء اللثام، تهاوت السلطة السياسية المرتبطة بهذا الزي في المغرب والأندلس على حد سواء، وقد أشار ابن عذاري ضمنيا إلى أن الزي أو اللباس بما فيه اللثام أصبح عربونا للعصيان السياسي تجاه المرابطين من خلال نزع اللثام، وولاء سياسي للموحدين من خلال ارتداء الزي الموحدي حيث يقول في هذا الباب "... وفي هذه السنة وصلت كتب أهل سبتة بالسمع والطاعة والدخول حزب الجماعة ووصل لعبد المومن يحي بن إسحاق أنجمار في جملة من إخوانه مسوفة وكلهم ملثمون ثم أزالوه بظاهر فاس وصاروا في زي الموحدين"[13]. وأثناء حديثه عن انهيار دولة المرابطين يقول: "وباد أمر أمراء اللثام وأبيحت مراكش لقتل من وجد فيها من اللمتونيين ثلاثة أيام ثم عفا عنهم أبو محمد عبد المومن"[14]، والشيء نفسه وقع في الأندلس "فما أن وصلت أخبار أولى انتصارات الموحدين حتى ثارت الأندلس على ولاتها الملثمين"[15].

ثالثاً: العهد الحساني والتحولات الميدانية

شهد دخول القبائل العربية (بني حسان) إلى المجال الصحراوي تفاعلاً مع الرموز اللباسية المحلية الدالة على الجاهزية الحربية، ومع تراخي الزمن، تخلت بعض قبائل حسان عن اللثام في سياق صراعها التاريخي مع الزوايا، واقتصر التلثم لديها على دواعي المناخ أو حالات الخوف والحروب. بل وعمد بنو حسان إلى إرساء عادات مظهرية تخالف موروث صنهاجة، مثل إطالة شعر الرأس بدلاً من حلقه، وحسر اللثام عن الوجه. وبذلك انحصر التلثم الكلي واللسان الصنهاجي القديم لدى مجموعات الطوارق.

وعوض اللثام التقليدي، استحدث الحسانيون نمطاً جديداً عُرف بـ **"التروزية"**، والتي غدت علامة فارقة للقادة العسكريين في الغزوات أو أثناء رحلات صيد الوحوش، وكانت تُصنع من الصوف الأسود. ومما قيل شعراً (بالحسانية) انتقد فيه أحدهم غياب المقومات الحربية اللازمة لارتداء التروزية:

مَالِ بَعْدْ مِشْ بِه اهْزّ ... تِرَازْ كَيْفْ نِدِيرْهَا

مَا كُنْتْ التَيْسْ إرُوغْ عَنْزْ ... عَلَى كَرْدُودِي مَارْهَا. [16]

وفي عهد السلطان العلوي المولى إسماعيل، وخلال حملاته لتثبيت الأمن في بلاد شنقيط ودعم الأمير علي شنظورة (أمير الترارزة)، تم تجنيد عناصر من قبائل تكنة (خاصة آيت لحسن وإزركيين). وعقب تنصيب علي شنظورة أميراً على الجنوب الموريتاني، أمر السلطان المولى إسماعيل بتمييز مكانته الاجتماعية عبر بوابة اللباس؛ فحيث كان عامة الحسانيين يرتدون سراويل فضفاضة من ثوب "النيلة" الداكن، أُمِر الأمير بارتداء **سروال من الثوب الأبيض الناصع** كعلامة سلطوية تبرز حظوته ومكانته الرفيعة بعد انتصاره على مناوئيه.[17]

التوظيف السوسيولوجي والأمني للباس في العصر الحديث

أولاً: اللباس في استراتيجيات التحالفات القبلية والزواج.

لم يقتصر اللباس على أبعاده النفعية، بل جرى توظيفه كآلية رمزية لتمتين اللحمة الاجتماعية والسياسية للقبائل من خلال منظومة المصاهرة. فعلى مستوى التحالفات الداخلية للقبيلة، شاعت الحكمة المأثورة: "منت عم الراجل سروال". وهي مقولة رشيقة المبنى عميقة المعنى، تحث على السترة والتكامل؛ فالمرأة بمثابة غطاء للرجل وسند له في نوائب الحياة ومساغبها، وهي تعبير يسعى لمنح الشرعية العرفية والقبلية للزواج الداخلي (زواج الأقارب) صوناً لتماسك العشيرة، وهي ظاهرة لا تزال مستمرة لدى بعض القبائل وبخاصة قبائل الزوايا.

---

[13]– ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

[14]– ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

[15]– دولة المرابطين في المغرب والأندلس، سعدون عباس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 2007م، ص:126.

[16]– دراسات صحراوية المجتمع والسلطة والدين، الدكتور رحال بوبريك، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2008، ص: 166

[17]– تمثيل السلطة المركزية والممارسات الاستبدادية (السلطة المحلية في شمال المغرب) في عهد السلطان المولى إسماعيل (1727هـ – 1672م)، البشير أبرزاق، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، العدد 12 ص:125.

وفي المقابل، وتشجيعاً للانفتاح وبناء التحالفات الجبهوية العابرة للقبيلة الواحدة، برزت المقولة المقابلة: "دفوا أمناتكم بالرجالة ملحفة وإزار". وتأتي هذه التوجيهات السوسيولوجية في سياق الصراعات القبلية والاضطرابات التي وسمت مجتمع الصحراء تاريخياً؛ حيث كانت القبائل مجبرة على توسيع جغرافية تحالفاتها الخارجية كآلية دفاعية واستراتيجية للبقاء (وفق أطروحة السوسيولوجي بيير بونت)، وهي استراتيجيات ظلت نشطة حتى دخول الاستعمارين الفرنسي والإسباني للمنطقة في ثلاثينيات القرن العشرين[18].

ثانياً: حملة أحمد الهيبة واللقب السياسي (السلطان الأزرق)

عقب فرض الحماية الأجنبية على المغرب سنة 1912، وتأجج حركة المقاومة بقيادة الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين، رفقة قبائل الصحراء ووادي نون وسوس نحو أحواز مراكش، استرعى اللباس الصحراوي انتباه الكتابات الأجنبية، فقد قُدر عدد المجندين في هذه الحركة بنحو خمسة عشر ألف رجل، وأضحت التقارير والكتابات الكولونيالية تطلق على القائد أحمد الهيبة لقب "**السلطان الأزرق**"، اشتقاقاً من لونه ونمط لباسه الصحراوي المتميز[19]

ثالثاً: الاختراق الاستخباراتي الأوروبي عبر تقمص الزي المحلي (رحلة فيوشانج نموذجاً)

من المثير للاهتمام كشف الكيفية التي وظفت بها الرحلات الاستكشافية الأوروبية لباس الصحراء كأداة اختراق ناجعة لجمع المعلومات الاستخباراتية والجغرافية لصالح القوى الاستعمارية الفرنسية والإسبانية. وتكثفت هذه الرحلات بالخصوص في القرن التاسع عشر، وصولاً إلى رحلة الرحالة الفرنسي **ميشيل فيوشانج** (Michel Vieuchange) سنة 1930، والتي انطلقت من تزنيت وصولاً إلى حاضرة السمارة[20]، ولتأمين نجاح هذه الرحلة الخطيرة، قام الأخوان ميشيل وجان (Jean & Michel) بالاطلاع الدقيق على التقارير السابقة ودراسة العقبات التي واجهت المستكشفين الأقدمين. وخلصا إلى أن اختراق مجتمعات البدو الرحل يفرض حتماً إخفاء الهوية الأوروبية وتقمص الشخصية الصحراوية عبر بوابة الزي المحلي. وفي هذا الإطار، تخفى ميشيل فيوشانج في الطور الأول من رحلته (حتى حدود وادي درعة) مرتادا زي امرأة يشتمل على قماش "الخنط الأزرق". وفي الطور الثاني الرابط بين وادي درعة والسمارة، تحول لتقمص شخصية بدوي مترحل، مرتدياً الزي الرجالي المحلي تماشياً مع جغرافية المكان ونمط مرافقيه البدو[21].

وقد مكنت هذه الاستراتيجية الاستخباراتية القائمة على التمويه باللباس فيوشانج من تقديم خدمات جليلة للاستخبارات العسكرية الفرنسية تمثلت في:

1 رصد وتحديد المسالك والممرات الجغرافية الوعرة التي اخترقها.

2 فهم طبيعة علاقات التجاذب والامتداد العسكري بين الساقية الحمراء وموريتانيا، حيث كانت تنطلق العمليات المسلحة للمقاومة بقيادة الشيخ ماء العينين وقبائل الركيبات وتكنة ضد الوجود الفرنسي بشنقيط.

وتأسيساً على هذه التقارير المستفيضة، أدركت السلطات الاستعمارية القيمة الرمزية والأنثروبولوجية للباس عند مجتمع الصحراء، فعملت على ابتكار اللقب السياسي "السلطان الأزرق" وخلعه على الشيخ أحمد الهيبة، ارتباطاً بخصوصية اللباس الصحراوي الذي يتبوأ فيه اللون الأزرق مكانة صدارة إلى جانب الأبيض والأسود[22].

5- التوظيف الاقتصادي للباس: الأقمشة كوحدات نقدية ومواد للمقايضة

---

[18]- موريتانيا الحديثة أو العرب البيض في إفريقيا السوداء، محمد يوسف مقلد، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى 1960 ص: 63.

[19]- الفتاوى والتاريخ، محمد المختار ولد السعد، (ص: 58).

[20]- مذكرات وتقارير رحلة جان وميشال فيوشانج إلى السمارة عام 1930، (الطريق إلى السمارة)، ترجمة وتقديم محمد فنيدو.

[21]- اللباس الصحراوي، مقاربة تاريخية، عمر ناجيه.

[22]- اللباس الصحراوي، مقاربة تاريخية عمر ناجيه.

شكل اللباس، إلى جانب سلع حيوية أخرى، واحداً من أهم وسائط التبادل التجاري والمقايضة الاقتصادية التي نظمت العلاقات التجارية التاريخية بين الصحراء والسودان الغربي وفي ظل غياب النقود والمسكوكات النقدية كوحدة تبادلية في بعض الفترات والمناطق، غدت **"البيصة"** (وحدة قماش معلومة) و"البنيكة" (وحدة نسيج مستوردة من السودان) أساساً لتقويم السلع ومقايضتها بالمواد الثمينة كالذهب، والملح، والودع، وصغار المواشي مثل "الجدعة" من الغنم و"الحِك" (فتي الإبل)، وكان عرض شقة البنيكة يناهز شبراً أو أقل مع اختلاف في طولها [23]، وليس من الغريب أن يسجل غياب النقود كوحدة للتبادل، وفي هذا السياق، يوثق **الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل** في رحلته الحجازية غياب التعامل بالعملات النقدية في تلك الربوع قائلًا: **"إن بلادنا لا يعرف أهلها ديناراً ولا درهماً، فاعتبروا غاية وقالوا لي بمَ التصارف عندكم؟ فقلت بالأنعام والأثواب".** [24]

ويعضد هذا الطرح المؤرخ محمد الأمين الشنقيطي، مبيناً طبيعة المعاملات التجارية البديلة بقوله: "بقي أن نتكلم على ما يتعاملون به بينهم، عوض الدراهم فإن أكثر ذلك إنما هو القماش والغنم وكل جنس المواشي المعروف الأثمان، فالبيصة، وهي علم على ثلاثين ذراعاً من القماش، مثل الريال عند غيرهم، والبيصة نوعان: نوع خشن وليس بالجيد ونوع جيد يسمى "الميلس". كما أشار الشنقيطي إلى المواد التي يجلبها تجار الملح من السودان مثل القماش المعروف بـ "الأكحال" ويسمونه "الأنصاف"، وأردية تُدعى "دماس"[25]، وأضاف بأن مادة الصمغ العربي (العلك) المسوقة نحو فرنسا كانت تُبادل أساساً بالأقمشة المستوردة؛ إذ يقول: **"وهذا الجني (الصمغ) يباع كله في فرانسا ويؤخذ منهم عوضه من القماش المسمى عندهم بالخنط وهو أنواع منه أسود ومنه أبيض ومنه أخضر".** [26]

وتأكيداً لهذه البنية الاقتصادية القائمة على المقايضة، ذكر الإداري الفرنسي **شامبونو** في الربع الأخير من القرن السابع عشر غياب العملة النقدية في التبادل [27]، وهو ما قعد له فقهياً وعُرفياً العالم **الشيخ محمد المامي** في مؤلفه القيّم **"كتاب البادية"**، حيث ذكر أن التقويم بالعروض في أرض لا سكة (عملة) فيها هو أمر تشهد له الأصول والنوازل الفقهية في البلاد الممتدة من "أكمين" إلى "وادي نون" منذ فتح أدرار على يد أبي بكر بن عمر؛ إذ شكل الودع و "البيصة" والأنعام وسائط التقويم الرئيسية تبعا لخصوصيات كل مجال، ومن هذا المنطلق، دخلت الأثواب والأقمشة (التي كان جلها يستورد من جنوب شرق آسيا وخاصة الهند) في دورتي النقد والمقايضة[28]، ذلك أن الودع و"بيصة" والأنعام قد شكلت وسائط التقويم والتبادل الأساسية في البلاد تبعا لخصوصيات كل منطقة[29]، ومن هذا المنطلق ستدخل الأثواب في دائرة المواد التي يتم التقايض بها علما بأنها كانت تأتي من جنوب شرق آسيا وخاصة الهند[30].

وبناءً على التقارير الفرنسية، اعتُبرت الأقمشة وخاصة **"النيلة"** بمثابة "الأوراق النقدية للصحراء". وبفعل هذه القيمة المادية، قُورن "الخنط" بمختلف البضائع والمنتجات؛ حيث تذكر التقارير الكولونيالية أن "القماش الغيني" كان يُقايض بالصمغ العربي. وكانت قطعتان من القماش

---

[23]– موريتانيا الحديثة أو العرب البيض في إفريقيا السوداء، محمد يوسف مقلد، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى 1960 ص: 63.

[24]– الرحلة الحجازية، الشيخ ماء العينين بن مامين، تحقيق ماء العينين مربيه ربه، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتنمية، المغرب، الطبعة الأولى 2010م.

[25]– الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي (ت1331هـ)، نشر الشركة الدولية للطباعة مصر، الطبعة الخامسة، 2002م – 1422هـ.

[26]– محمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.

[27]– تقارير شامبونو: هي وثائق رسمية وسجلات تاريخية كتبها الإداري والتاجر الفرنسي لويس مورو دي شامبونو الذي عمل مديراً للشركة الفرنسية في السنغال خلال الفترة ما بين (1675م إلى 1677م).

[28]– كتاب البادية، الشيخ محمد المامي بن البخاري 1282هـ، تحقيق وتقديم: جمعية التراث العلمي للشيخ محمد المامي، نشر: جمعية التراث العلمي للشيخ محمد المامي، الداخلة المغرب، الطبعة الأولى 2020م.

[29]– البادية الشيخ محمد المامي، (ص:125).

[30]– الفتاوى والتاريخ، محمد المختار ولد السعد، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2000م، (ص: 61).

الغيني الأزرق المستورد عبر محطة وادي نون تُعادل كيلوغراماً واحداً من ريش النعام الثمين، أما ثمن قطعة القماش مقابل الدخن أو الذرة البيضاء فكان يبلغ ثلاثين "متاراً" (وحدة كيل للحبوب تعادل عشرين مداً)، في حين تقايض قطعة القماش بمئة قالب من الدهن.

وكانت المنطقة تُموّن بالخنط عبر شريانين رئيسيين: محطة وادي نون شمالاً ومحطة سان لوي جنوباً. وفي هذا الصدد، أشار الباحث **علي صل** إلى قافلة تجارية ضخمة جهزتها قبيلة "تنواجيو" محملة بالصمغ العربي نحو محطة سان لوي، حيث جرت مبادلته بالبضائع الأوروبية ولا سيما القماش الغيني الأزرق، مضيفاً أنه في فترات غلاء الأثواب وشحها، كان القميص الواحد يُباع مقابل عدة "تبيعات" من البقر[31]، ففي زمن غلاء الأثواب كان القميص يباع بعدة تبيعات من البقر[32].

وفي المنحى ذاته، أوضح الرحالة الفرنسي **بلانشي** أن سكان شنقيط وأطار كانوا يوفدون سنوياً قافلة تجارية لسان لوي لشراء القماش الغيني الأزرق بمختلف عيناتهن لاستعماله في اللباس؛ حيث يشترون القطعة بستة فرنكات ليعيدوا بيعها في أدرار بأسعار مضاعفة تتراوح بين عشرة واثني عشر فرنكاً[33]ويوثق الرحالة **رينيه كايي** (Caillié) أن زوايا البراكنة، عند جفاف ضروع مواشيهم صيفاً، كانوا يشدون الرحال نحو منطقة "فوته" لمبادلة حاجياتهم من الدخن والذرة البيضاء برؤوس من الماشية وقطع من القماش الغيني الأزرق[34].

وعلاوة على القماش الغيني، تداولت الأسواق صنفاً آخر عُرف بـ **"القماش الهاوصي"**، وكان تجار ولاتة يقايضونه بالملح والإبل والمنتوجات القادمة من الشمال الإفريقي، وهو قماش رقيق يُباع بأسعار مربحة في حاضرة "أروان". وكان تجار قبيلتي "لغلال" و"لادم" يقصدون ولاتة لمبادلة الذهب والإبل بهذا القماش. ووصلت القيمة الائتمانية للأثواب حد حلولها محل الذهب في المعاملات الاجتماعية الحساسة كالدية؛ إذ بلغت الدية في إحدى الحالات ألف مثقال من الذهب قُوِّمت عيناً بستمئة قطعة قماش. كما شكلت الأثواب مادة أساسية في تجارة الرقيق إلى جانب الحديد والودع والنحاس والإبل. وبذلك، غدا "الخنط" آلية من آليات التثاقف السلمي والحراك التجاري والثقافي النشط بين "العجام" وحسان، وجسراً واصلاً بين الصحراء والسودان الغربي[35]،

5- التوظيفات الفقهية والنوازلية للباس (الأبعاد الدينية والتعليمية).

أولاً: حضور اللباس في الفتاوى والنوازل الفقهية بالصحراء

تزخر النوازل والفتاوى الفقهية لعلماء الصحراء بإشارات دقيقة وقضايا متعددة ارتبطت باللباس؛ نظراً لكونه مرآة عاكسة لتفاصيل الحياة اليومية والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية السائدة.

- ففي مخطوط فتاوى الفقيه **ابن الأعمش العلوي** (سيدي محمد بن المختار بن الأعمش)، نجد نازلة اجتماعية يسأل فيها مستفتٍ عن امرأة حامل اشتهت دراعة كحلاء (ملحفة)، فاشتراها لها زوجها مقابل ثلاث بقرات، ثم كافأته الزوجة بدفع بقرتين له (حسب ادعاء الزوج)، وتركت الثوب مع بقر أهلها، وقامت بفصال الدراعة تارة تلبسها وتارة تضعها.[36]

---

[31]- موريتانيا الحديثة أو العرب البيض في إفريقيا السوداء، محمد يوسف مقلد ص:64

[32]- المصدر السابق نفسه.

[33]- موريتانيا الحديثة أو العرب البيض في إفريقيا السوداء، محمد يوسف مقلد ص:58.

[34]- تنبكت وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي، شوقي عطا الله، أعمال ندوة مراكش الدولية حول المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، ص:40.

[35]- تنبكت وعلاقتها بالمغرب، شوقي عطا الله ص:41

[36]- نوازل محمد الأمين بن المختار بن الأعمش، تحقيق: محمد الأمين بن الشيخ محمد الحافظ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا الرباط 1996م، ص: 08.

وفي سياق تقويم الصداق والمهر بالأقمشة، سُئل العلامة **الشيخ سيديا الكبير** عن قيمة البعير مقوماً بالحنط (القماش) في الصداق، فأجاب: **"وأما بعير الصداق فليس عندنا عرف في قيمته من الحنط، لكن بلغنا أنه كان قبل زمان كثرة الحنط عند أهل الإبل من الزوايا وعند بني حسان يؤخذ عنه نصف بيصة، والصواب عندنا في زمان كثرة الحنط أن البعير يدفع مقابل بيصة واحدة (ملحفة وإزار)"**[37]

- وفي نازلة أخرى لابن الأعمش، يُسأل عن امرأة متزوجة من رجل متوسط الحال (ليس بغني ولا فقير)، كساها زوجها كسوة، ثم اشتهت ثوباً عند أحد الناس وهي حامل فاشتراه الزوج لها، ولاحقاً زارها أبوها أو أخوها وكساها، فقامت الزوجة ببيع الثوب الذي اشتراه الزوج واشترت بقيمته أمة (جارية)، واشترطت على زوجها ألا ينازعها في ملكية هذه الأمة وقبل الزوج شرطها[38].

وتناول ابن الأعمش قضية اللباس في إطار عقود البيوع والديون والسَّلَم من جوانب متعددة:

- **جواز البيع على الوصف:** حيث جاء في نوازله: **"فأما شراء العديلة والملحفة أو الزرع على الحلول من غير رؤية فيجوز على الوصف"**[39]،

- **نازلة السَّلَم واختلاف القيمة بالجدة والبلى:** حيث سُئل الفقيه محمد بن أبي بكر بن الهاشم عن جواز سلم ثوب بالٍ (مستعمل) في ثوب جديد، وهل تختلف المنافع والأغراض باختلاف جدة الثوب وبلاه؟ فأجاب ابن الهاشم بأنه لم يرَ من يقول باختلاف الغرض بالجدة والبلى. وعند رفع النازلة إلى شيخه محمد بن المختار بن الأعمش، خالفه الرأي وأجاب بأن: **"الجدة والبلى مما تختلف به الأثمان والأغراض، ولكن تقاربت المنفعة فيهما فلا يجوز سلم أحدهما في الآخر، وقد نص الشيخ على اختلاف الثمن بهما"**[40].

- **ضمان الديون المقومة باللباس:** سُئل ابن الأعمش عمن كان يطالب رجلاً بعشرين ملحفة ديناً مؤجلاً، وعند حلول الأجل ومطالبته بالأداء، دفع له المدين فرساً غائبة (على مسيرة ستة أيام) فقبلها صاحب الدين بشرط أن يظل المدين ضامناً لها حتى قبضها، ثم تبين لاحقاً أن الفرس قد ماتت. فأجاب الفقيه بأن: **"ضمان الفرس من المدين، لأنها إن ماتت قبل شرط العقد فواضح إذ لم يصادف محلاً، وإن ماتت بعد العقد فبيعها فاسد بسبب شرطهما لأنه بمنزلة النقد في بعيد الغيبة"**[41].

- **مكان استيفاء دين الأثواب:** وفي نازلة ترتبط بمكان الأداء، سُئل عمن له دين أثواب مشروط قبضها في حاضرة شنقيط، فماطله المدين ثم ظفر به في غير شنقيط؛ هل يلزمه الأداء في مكان الظفر به أم يؤخر لبلد الشرط؟ فأجاب بأن: **"صاحب الحق مخير بين أن يأخذ منه أثوابه هناك أو قيمتها في الموضع المشترط، لأنه لما ماطله صار بمنزلة الغاصب والسارق"**[42].

- **اللباس وقضايا الوصية:** سُئل عمن كتب لأولاد فلان مئة ملحفة عند عزمه على السفر، وأمر وكيله بألا يتركها ديناً عليه، وعند عودته من السفر ادعى أن هذا العطاء كان على وجه الوصية؛ فهل يُصدق؟ فأجاب الفقيه بـ: **"أنه مصدق في دعواه، فإن خالف المقر له وزعم أن ذلك من دين أو معاملة سابقة فعليه البيان، لأن أفعال المسافر والمريض محمولة على الوصية حتى يثبت خلافه"**[43].

---

[37]- نوازل محمد الأمين بن الأعمش، ص: 13

[38]- نوازل ابن الأعمش، ص:16.

[39]- نوازل ابن الأعمش ص: 18.

[40]- نوازل ابن الأعمش ص: 28.

[41]- ابن الأعمش، المصدر نفسه، ص: 25.

[42]- ابن الأعمش، المصدر نفسه، ص: 27.

[43]- ابن الأعمش، المصدر نفسه، ص: 28.

- **تقويم الدية بالأثواب عيناً:** وفي سياق تقنين الديات الناتجة عن التدافع القبلي، أورد المخطوط نازلة جاء فيها: **"وأما الدية فمشهور مذهب مالك رحمه الله تعالى أنها على ثلاثة أنواع الإبل والذهب والفضة، فمن شح ولم يقبل أي ذلك إلا أن يؤدي ذلك إلى مفسدة عظيمة، فيكون القول بغير هذه الأنواع دُعي إلى المصلحة وهو القول بمائتي ثوب أو مائتي بقرة وألف شاة فيتعين المصير له"**[44].

وإضافة إلى ما تحمله هذه الفتاوى من مضامين اجتماعية هامة، فإنها تقنن، ووفق اجتهادات فقهاء المالكية، الاستعمالات المختلفة للأثواب سواء تعلق الأمر بالبيوع أو الهدايا أو التصرفات المختلفة الأخرى، ونورد في موضوع الهدايا ما حصل بين محمد اليدالي بن المختار وأحد زواره "الخافيين" حيث "أنه كان يوما وعياله محتاجين إلى اللباس فإذا برجل في بعض الليالي حاملا مزودا مملوءً من اللباس على ثور فطرحه عنده فقال له من أنت فقال لا أدري فقال من أين أتيت فقال لا أدري ثم ارتفع هو وثوره فأصبح اليدالي يفرق اللباس على كل عريان"[45].

ثانياً: العمامة كرمز علمي ومشيخة معرفية

حظي اللباس، ولا سيما "العمامة"، بمكانة رمزية بالغة في المحافل العلمية وميادين تحصيل المعرفة بالصحراء؛ إذ جرى العرف التعليمي في المحاظر أنه عند استكمال الطالب لدراسته وتمكنه من المادة العلمية، يُمنح إجازة علمية في حفل مشهود، وكان من طقوس هذا الاحتفال **تسليم الدارس عمامة** تعبيراً رمزياً ودليلاً مشهوداً على ارتقائه إلى مصاف العلماء والفقهاء."[46]،

وقد وثق الشعر المحلي (باللهجة الحسانية) هذه المكانة الرمزية والدينية الموروثة للعمامة، كما جاء في مدح أهل الشيخ الحضرمي:

مِنْ ذَاكْ الْيُومْ إِلَيْنْ الْيُومْ ..... أَقْطَابْ السِّرْ وَالْعَمَايِمْ

خَيْمَةْ عَبْدِ الدَّايِمْ مَفْهُومْ ..... عَنْهَا خَيْمَةْ عَبْدِ الدَّايِمْ.

وَخَيْمَةْ وَلْدُو مُحَمَّدْ زَادْ ... أَلَا هِيَ خَيْمَةْ مُرَادْ.

الدِّينْ الْمُشَابَهْ وَأَوْرَادْ .....السِّرْ وَفَتْحْ الْعَزَايِمْ.

وَعَمَايِمْ مَوْرُوثَةْ تِلَادْ ... مَا خَلَّ مَاهْ الْعَمَايِمْ[47].

وارتباطاً بالتحولات التاريخية والدينية في الفضاء الصحراوي، أحدث انهيار مملكة صونغاي وتفكك حواضر المعرفة تحولات عميقة في بنية السلطة الدينية والمظهرية للفقهاء، وتجلى هذا التحول المظهري في نازلة إقدام أحد الفقهاء وهو **أبو عبد الله محمد بن محمد علي بن موسى** على خطوة غير مسبوقة تمثلت في **نزع العمامة** (التي كانت تشكل الشعار الرسمي للفقهاء والعلماء)، وبسبب خرقه لقاعدة الحجاب والوقار المظهري هذه، لُقب في الأوساط المحلية باسم **"عريان الرأس"**[48] ويظل اللباس التقليدي، إلى جانب الأنماط الغذائية واللغوية والفنية، من القضايا الجوهرية التي وجهت الزوايا والطرق الصوفية مساراتها في غرب الصحراء والسودان الغربي، واضعةً بصماتها الهوياتية عليها بشكل مستدام [49].

---

[44]- ابن الأعمش، المصدر نفسه، ص: 69.

[45]- حياة موريتانيا المختار ولد حامد ص: 17

[46]- تنبكت وعلاقتها بالمغرب شوقي عطا الله ص: 46

[47]- اللباس الصحراوي مقاربة تاريخية، عمر ناجيه.

[48]- تاريخ موريتانيا حماه الله ولد السالم ص: 156 – 157.

[49]- التصوف والطرق الصوفية في السنغال، خديم امباكي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الطبعة الأولى 2002م، ص: 129.

خاتمة:

تأسيساً على المقاربات التاريخية والسوسيولوجية المتقدمة، يتضح جلياً أن اللباس التقليدي في المجال الصحراوي والبيضاني لم يكن مجرد أداة وظيفية للوقاية المناخية، بل كان فاعلاً رئيسياً ومحركاً رمزياً في مختلف أشكال الحراك البنيوي للمجتمع. فمنذ العصور الوسطى، تداخلت الأبعاد السياسية والعسكرية للباس، متمثلة في اللثام الصنهاجي والعمامة المرابطية، لتسهم في صياغة الولاءات وتحديد المعالم النفسية والسياسية الممتدة من الصحراء وسوس إلى المغرب الأوسط والأندلس.

وفي العصرين الحديث والمعاصر، تحولت الأثواب والأقمشة عبر شبكات "الخنط" و"البيصة" إلى عصب اقتصادي متكامل وأوراق نقدية حركت قوافل التجارة الدولية الرابطة بين الصحراء وأوروبا وجنوب شرق آسيا. كما شكل اللباس مادة خصبة ودسمة للمتن النوازلي والفقهي، متيحاً للعلماء تقنين وحل المعضلات الاقتصادية والاجتماعية المعقدة لمكونات المجتمع. إن دراسة هذه التوظيفات المتشعبة للباس تضع اليد على قضايا أنثروبولوجية بالغة الأهمية، وتفتح آفاقاً جديدة للبحث والتنقيب في تفاصيل التاريخ الاجتماعي والثقافي للصحراء، بعيداً عن الروايات الرسمية الجافة.

المصادر والمراجع:

- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية.
- تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر)، عبد الرحمن ابن خلدون 808هـ تحقيق: خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1421-2001م.
- التراث الثقافي بالساقية الحمراء وسبل التثمين، سيدي السالك البودناني، مجلة المعرفة التابعة لمركز جسور، العدد الثالث والعشرون، يناير 2025.
- التصوف والطرق الصوفية في السنغال، خديم امباكي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الطبعة الأولى 2002م.
- تقارير شامبونو: هي وثائق رسمية وسجلات تاريخية كتبها الإداري والتاجر الفرنسي لويس مورو دي شامبونو الذي عمل مديراً للشركة الفرنسية في السنغال خلال الفترة ما بين (1675م إلى 1677م).
- تمثيل السلطة المركزية والممارسات الاستبدادية (السلطة المحلية في شمال المغرب) في عهد السلطان المولى إسماعيل (1727هـ - 1672م)، البشير أبرزاق، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، العدد 12
- تنبكت وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي، شوقي عطا الله، أعمال ندوة مراكش الدولية حول المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء.
- دراسات صحراوية المجتمع والسلطة والدين، الدكتور رحال بوبريك، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2008
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الدكتور نهلة شهاب أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2009م،
- دولة المرابطين في المغرب والأندلس، سعدون عباس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 2007م.
- الرحلة الحجازية، الشيخ ماء العينين بن مامين، تحقيق ماء العينين مربيه ربه، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتنمية، المغرب، الطبعة الأولى 2010م.
- الفتاوى والتاريخ، محمد المختار ولد السعد، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2000م.
- كتاب البادية، الشيخ محمد المامي بن البخاري 1282هـ، تحقيق وتقديم: جمعية التراث العلمي للشيخ محمد المامي، نشر: جمعية التراث العلمي للشيخ محمد المامي، الداخلة المغرب، الطبعة الأولى 2020م.
- المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر، محمدو بن محمدن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 2001م.
- مذكرات وتقارير رحلة جان وميشال فيوشانج إلى السمارة عام 1930، (الطريق إلى السمارة)، ترجمة وتقديم محمد فنيدو.
- المسالك والممالك لأبي عبيد البكري (ت 477هـ)، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1992م.
- موريتانيا الحديثة أو العرب البيض في إفريقيا السوداء، محمد يوسف مقلد، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى 1960م.
- موريتانيا الحديثة أو العرب البيض في إفريقيا السوداء، محمد يوسف مقلد، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى 1960م.
- نوازل محمد الأمين بن المختار بن الأعمش، تحقيق: محمد الأمين بن الشيخ محمد الحافظ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا الرباط 1996م.
- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي (ت1331هـ)، نشر الشركة الدولية للطباعة مصر، الطبعة الخامسة، 2002م – 1422هـ.